Rimak International Journal of Humanities and Social Sciences

ISSN: 2717- 8293

Abderrahim ABOUAYYOUB [1]

MORAL VALUES IN THE REVEALED RELIGIONS

http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.4-3.14

Research Article

Received: 12/03/2021
Accepted: 02/04/2021
Published: 01/05/2021

This article has been scanned by **iThenticat**
No plagiarism detected

Copyright © Published by Rimak Journal, www.rimakjournal.com

Rimar Academy, Fatih, Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

Abstract:

No two would argue about the on going severe collapse of the social relations at all levels, in all societies . And there is no disagreement that both the success and the ruin of these social relations are heavily based on the good or bad status of the morals and values in these societies. And since these innate universal morals and values are immutable, and common between all humans. we should ask the question where is the problem?
Is it in the fact that these values and morals are not included within the legislation and laws of these societies? or it is because the individuals do not abide by these rules and laws.
In both cases, we are in need of a great effort to try to elicit such legislation from a solid and strong source, and pave the way for them to.

Key words: Values, Moral, Religions, Philosophy.

.

[1] Dr. , University Sidi Mohamed Ben Abdellah, Morocco, ABOUAYYOUB8ALANSARI@hotmail.com
https://orcid.org/0000-0003-2986-8279

القيم الأخلاقية في الأديان السماوية
- ذلك المشترك الغائب-

عبد الرحيم أبوأيوب [2]

الملخص

لا خلاف حول الانهيار الشديد للعلاقات الاجتماعية في أغلب المجتمعات على جميع المستويات، ولا خلاف أيضا على أن صلاح هذه العلاقات وفسادها رهين بصلاح أو فساد القيم الأخلاقية.

وإذا كانت الأخلاق فطرية كونية ثابتة لا تتغير، ومشتركة بين بني الإنسان، فما المشكل إذن؟

هل المشكل في عدم شمولية تشريعات تلك المجتمعات للقيم الأخلاقية، أم لعدم التزام أفرادها بها؟

وفي الحالتين معا، نحتاج لجهد كبير لاستنباط تلك القيم من تشريع صحيح، وتمهيد طريقها أما الجميع لتقبلها والتعايش بها، باعتبارها سبيل نجاة للإنسانية كلها.

وهذا الأمر يحتم علينا الرجوع إلى المصادر التشريعية لكل مجتمع – مع الاقتصار على الأديان السماوية – واستقراءها لمعرفة هل المشكل في المصدر نفسه أم في الملتزم به؟

الكلمات المفتاحية: قيم، أخلاق، أديان، فلسفة.

المقدمة:

يقول ابن مسكويه "إن الفضائل الخلقية إنما وضعت لأجل المعاملات والمعاشرات التي لا يتم الوجود الإنساني إلا بها. ذلك أن العدل إنما احتيج إليه لتصحيح المعاملات، وليزول به معنى الجور الذي هو رذيلة عند المتعاملين. وإنما وضعت العفة فضيلة لأجل اللذات الرديئة التي تحي الخيانات العظيمة على النفس والبدن. وكذلك الشجاعة، وضعت فضيلة من أجل الأمور الهائلة التي يجب أن يقدم الإنسان عليها في بعض الأوقات ولا يهرب منها. وعلى هذا جميع الأخلاق المرضية" (صفحة 176).

من خلال هذه الكلمات يتبين أن وجود الفرد رهين بوجود الجماعة. ووجود الجماعة رهين بوجود قيم أخلاقية تحكم نفوس أفرادها، وتقودهم إلى فعل الخير بإرادتهم.

وهذا ما يفسر لنا اهتمام الإنسان منذ القدم بموضوع الأخلاق، حتى جعلها الفلاسفة ثلث الفلسفة. فقد "كانت الفلسفة اليونانية القديمة تقسم نفسها إلى علوم ثلاثة: الطبيعة، والأخلاق، والمنطق" (كانت، 2002، صفحة 19).

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم صح عنه أن قال: {إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ} (البيهقي، 2003). وهذا الحديث جاء بهذه صيغة، لبيان أن الأخلاق فطرة إنسانية راسخة، تكمل وتسمو إذا بنيت على مرجعية صحيحة غير مشوبة بتحريف.

لذلك لا نبالغ إذا فسرنا الانهيار الشديد للمعاملات الاجتماعية في أغلب المجتمعات وعلى جميع المستويات، بغياب القيم الأخلاقية التي حلت محلها الرذائل واستحكمت في النفوس، حتى جعلت الإنسان ينسلخ عن إنسانيته.

وإذا كانت القيم الأخلاقية فطرية، ثابتة لا تتغير، وكونية؛ مشتركة بين بني الإنسان، فما المشكل إذن؟ هل المشكل في عدم شمولية تشريعات تلك المجتمعات للقيم، أم في فقدان خصائصها مع وجودها؟

وهذا ما نريد الإجابة عليه، لعلنا نساهم في تعبيد الطريق لتشريع يشمل الإنسانية كلها لتتعايش وفقه، وتتقبله باعتباره سبيل نجاة للجميع على اختلافهم.

هذا الأمر يحتم علينا الرجوع إلى المصادر التشريعية لكل مجتمع –مع الاقتصار على الأديان السماوية- واستقراءها لمعرفة الخلل. لكن قبل ذلك علينا إلقاء نظرة عامة حول أهم ما تتميز به القيم الأخلاقية من خصائص.

الأخلاق مشترك إنساني ثابت:

للأخلاق خصائص تجعلها تشمل عموم الإنسان باعتباره إنسان، دون النظر إلى بعض الفوارق التي تميز فردا عن أخر, ومن هذه الخصائص أنها "فطرية كونية مشتركة بين جميع الناس" (الصمدي).

[2] د. ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب، ABOUAYYOUB8ALANSARI@hotmail.com

1. خاصية الفطرية:

هذه الخاصية نستشفها من التعريف الذي يشير إلى أن الأخلاق صفات النفس وطبعها الذي لا تنفك عنه، حيث عُرفت بأنها "هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية" (الجرجاني، 1983، صفحة 101) (طاليس، الصفحات 225-228). "فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة، سميت الهيئة: خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقًا سيئًا، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال بحالة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خلقه الحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخصٍ خلقه السخاء، ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل، لباعث أو رياء" (الجرجاني).

كما أن جون جاك روسو أشار لهذه الفطرة التي تميل إلى الفضيلة وتنفر من الرذيلة، بقوله "يوجد في أعماق البشرية مبدأ فطري للعدالة والفضيلة، تقوم عليه، رغم مبادئنا الشخصية، أحكامنا التي نصدرها على أفعالنا وأفعال الغير فنصفها بالخيرة أو نصفها بالشريرة. وإنني أسمي هذا المبدأ باسم الوعي".

"Il est donc au fond des âmes un principe inné de justice et de vertu, sur lequel, malgré nos propres maximes, nous jugeons nos actions et celles d'autrui comme bonnes ou mauvaises, et c'est à ce principe que je donne le nom de conscience" (Rousseau, p. 352).

2. خاصية الكونية

فالأخلاق ليس مبدأ خاص بفئة دون فئة، أو بعرق دون عرق. فهي قيم مشتركة بين الإنسانية جمعاء، لذلك جعلها (برعسون، 1984) واجبات إنسانية، ودعا إلى أخلاق منفتحة تشمل الإنسان باعتباره إنسان.

3. خاصية الثبات:

تتميز القيم الأخلاقية بأنها معايير ثابتة لا تتغير، "فليس في الأشياء الإنسانية ما هو ثابت ومضمون إلى حد ما هي عليه الأعمال الفاضلة ومعاطات الفضيلة" (طاليس، صفحة 210)؛ أما ما يتغير فمفهوم تلك القيم. وسبب ذلك التغير راجع إلى اختلاف المرجعيات، لأنه لا توجد قيمة بدون مرجعية سواء كانت حقا أو باطلا. فالحرية مثلا قيمة ثابتة، كل إنسان ينشد الوصول إليها، لكن يختلف معناها لدى الأشخاص باختلاف مرجعياتهم، لذلك نجد لها مفاهيم عدة. وكلما حصل تحريف للمرجعية، انحرفت مفهوم القيمة عن الفضيلة المقصودة، حتى يصبح رذيلة يلبس اسم فضيلة. وعلى هذا فالكذب لا يمكن أن يتطور إلى الصدق، والظلم لن يصبح يوما عدلا، والخيانة لن تنقلب عفة، مهما حاول البعض قهرا إطلاق مفهوم الصدق على الكذب، والعدل على الظلم، والعفة على الخيانة، استنادا إلى مرجعيته المحرفة المخالفة للفطرة. وهذا ما جعل (الصمدي) يذهب إلى أن "القيمة ثابتة، بينما مفهومها يتغير بحسب المرجعيات".

4. خاصية الإلزام:

بغض النظر عن مصدر الإلزام الأخلاقي الذي تشعبت فيه أقوال فلسفية عدة، فإنه لا بد منه. وهذا ما أشار إليه (دراز، 1998، صفحة 21) بقوله: "يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم على فكرة الإلزام l'obligation، فهو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته؛ وفناء ماهيتها؛ ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عدمت المسئولية، فلا يمكن أن تعود العدالة؛ وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضًا، وطبقًا لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي".

إذن فالأخلاق قيم فطرية، مشتركة، ثابتة، ذات طابع إلزامي. من خلالها تصدر كل أفعالنا. وبها تسعد الإنسانية عموما. لذلك فالسؤال الذي طرحه (سبينوزا، 2009، صفحة 16) على نفسه وهو يؤسس لعلم الأخلاق: "ماذا يجب علي أن أفعل كي أفوز بالسعادة". بل إن (طاليس، صفحة 212) ذهب إلى أن "الفضيلة هي علة السعادة الحقة... وأن الرجل الشريف الذي لا يطلب السعادة إلا من الفضيلة لا يمكن البتة أن يصير بائسا ما دام أنه لن يرتكب البتة أفعالا مذمومة وسيئة".

هذه إذن أهم خصائص القيم الأخلاقية التي إذا فقدت إحداها غابت الفضيلة، وحلت محلها الرذيلة التي تجعل حياة الناس جحيما لا يطاق.

الأخلاق من منظور الفكر اليهودي:

في الوقت الذي نجد التوراة يدعو إلى بعض أفعال الخير، كما جاء فيه: "لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور" (سفر الخروج: 20). "واعمل الصالح والحسن في عيني الرب لكي يكون لك خير وتدخل وتمتلك الأرض الجيدة التي حلف الرب لأبائك" (سفر التثنية: 6/ 18). "ولا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك أنا الرب" (سفر اللاويين: 19/ 18). نجده في نفس الوقت يمدح أفعال الشر الصادرة عن أنفس مشبعة بالرذيلة وبعيدة كل البعد عن القيم الأخلاقية، وينسبها إلى الأنبياء في قصص كثيرة. منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. ما نُسب إلى يعقوب عليه السلام من مكر وخديعة وكذب للحصول على بركة أبيه (سفر التكوين: 27).
2. ما اتهم به داوود عليه السلام من غدر وفجور وقتل بغير حق (سفر صموئيل الثاني: 11).
3. ما ذكر عن لوط عليه السلام وابنتيه، والذي يتبرأ منه الفاجر قبل العفيف (سفر التكوين: 19/ 30-36).

بل إن العهد القديم ينسب الكذب إلى الله تعالى، كما جاء أن الرب أخبر آدم أنه سيموت إذا أكل من الشجرة، ولم يمت (سفر التكوين:2/ 17). لذلك أصبح حالهم أنهم "لا يتكلمون بالحق علموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الافتراء" (سفر أرميا: 9/ 4-5). مع أنه يقول لهم في موضع آخر "ابتعد عن كلام الكذب" (سفر الخروج: 23/ 7).

ثم إن ما جاء من النصوص، هي في الواقع ليس أخلاقا بوصفها صفات نفسية دافعة إلى أفعال، وإنما هي أوامر سلوكية فقط لا تشير إلى إصلاح النفس وتحليتها بالأخلاق الفاضلة، وبذلك تنعدم الإرادة أو نية الفعل. فهي "عبارة عن قوانين أخلاقية بحتة تنظم السلوك الخارجي وتنهى عن الأفعال بغض النظر عن النية والقصد... ورغم أن هذه القوانين لها جذورها في الوعي الأخلاقي للبشرية، وهي بذلك يمكن تطبيقها في كل الأزمنة ولكل البشر، إلا أنه من الواضح أن الإسرائيليين اعتبروا تنفيذها مقصوراً عليهم." (دائرة المعرف الكتابية). وبذلك أصبحت الأخلاق اليهودية قومية سياسية، وفقدت أهم خصائصها وهي الكونية.

"Jewish ethics is… a kind of political" (Mittleman, p. 3).

وسبب ذلك, ليس لأن اليهود يقولون بأن القيم خاصة بقوم دون قوم، بل لأنهم لا يعتبرون غير اليهودي إنسان. ولذلك تغيب الأخلاق في معاملتهم للآخر وتحضر المصلحة فقط. فقد جاء في التلمود: "أيها اليهود إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله. وأما باقي الأمم فليست كذلك، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة... والخارج عن دين اليهود حيوان على العموم، فسمه كلباً أو حماراً أو خنزيراً. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان... وخلق الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم، لأنه لا يناسب لأمير أن يخدمه ليلاً ونهاراً حيوان وهو على صورته الحيوانية" (روهلنج، 2008، صفحة 145). علما أن (سفر الاويين: 19/ 33-34) أوصاهم بالغريب بقوله: "إذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك".

هذا الأمر دفع بعض الأخلاقيين اليهود إلى الانتفاضة ضد عنصرية الأخلاق اليهودية. فقام (سبينوزا، 2009، صفحة 306) مدافعا عن الإنسانية بقوله: "رغم أن الناس غالبا ما يذعنون لميولهم في كل الأمور، إلا أن مزايا الحياة الاجتماعية تفوق مساوئها بكثير. ومن الأفضل على المرء إذا أن يتحمل إساءتهم بروية وأن يبذل قصارى جهده في سبيل تحقيق الوئام والصداقة. إن ما يولد الوئام هو العدل والإنصاف والشرف". مشيرا إلى أن "الإنسانية رغبة في القيام بما يطيب للناس وعدم القيام بما يزعجهم" (سبينوزا، صفحة 225).

إذن من خلال تراث اليهود، يمكن القول أن الأخلاق اليهودية فقدت خصائصها بسبب تحريف مرجعيتها التي ركزت على القومية اليهودية، واهتمت بالأحكام العملية، دون الاهتمام بإصلاح الطباع النفسية، باعتبارها الدافع إلى فعل الخير أو الشر. وكذلك بسبب تجريدها لأنبيائها –باعتبارهم قدوة متبعون- من القيم الأخلاقية. وهذا الأمر هو الذي طبع الدولة اليهودية اليوم، إذ أكدته دائرة المعارف اليهودية لما تحدثت عن اليهود باستعلاء عن باقي الإنسان، حيث جاء فيها:

"the ethics of Judaism offers the solution of all the perplexities of modern political, industrial, and economic life. Israel as the "pattern people" shall be exponential, among its brothers of the whole human family, of the principles and practises which are involved in, pillared upon, and demanded by, the ethical monotheism which lifts man to the dignity of God's image and consecrates him the steward of all of his life, his talent, and his treasure. In the "Messianic kingdom," ideally to be anticipated by Israel, justice will be enthroned and incarnated in institution, and this justice, the social correlative of holiness and love, is the ethical passion of modern, as it was of olden, Judaism" (jewishencyclopedia).

هذا الانحراف في القيم الأخلاقية كان من الأسباب التي بها استحق اليهود غضب الرب (سفر الخروج: 32: 9-10). ونالوا لقب "شعب في الشر" (سفر الخروج: 32/ 22).

الأخلاق من منظور الفكر النصراني:

بعدما انحرف اليهود عن الفضيلة، ساء حال مجتمعهم، وأصبحوا (سفر أشعيا: 59/ 7-8) "أرجلهم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدم الزكي، أفكارهم أفكار إثم، في طرقهم اغتصاب وسحق، طريق السلام لم يعرفوه، وليس في مسالكهم عدل، جعلوا لأنفسهم سبلا معوجة، كل من يسير فيها لا يعرف سلاما"، عاقبهم الرب (سفر أرميا: 4/ 3). ثم أرسل إلى البقية منهم عيسى عليه السلام لإصلاح ما أفسدوه.

فكانت رسالته عليه السلام رسالة إصلاحية لشريعة موسى عليه السلام غير مستقلة عنها. تركز على تربية النفوس وإعادتها للفضيلة والبر. فمما جاء في (إنجيل متى: 23/ 25-28) "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقون

خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوان اختطافا ودعارة. أيها الفريسي الأعمى نق أولا داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضا نقيا. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثما".

ومن بعض الأخلاق التي جاءت في إنجيل متى، نجد:

1. الحلم: "إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم" (5: 22)

2. العفو: "لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا" (5: 39-40).

3. المحبة: "أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم" (5: 44).

لكن بالتأمل في هذه النصوص، نجدها في الواقع لا تدعوا إلى الفضيلة وإنما إلى رذيلة باسم فضيلة. ذلك أن الفضيلة وسط بين رذيلتين؛ إحداهما بالإفراط والأخرى بالتفريط (طاليس، صفحة 258). فالحِلم وسط بين الغضب والمهانة، والعفو وسط بين الانتقام والضعة، والمحبة وسط بين البغض والعشق.

فالنصوص السابقة؛ الأول منها يدعو إلى المهانة لا إلى الحلم، والثاني إلى الضعة لا إلى العفو، والثالث إلى العشق لا إلى المحبة. وهذه كلها رذائل حذر منها الأخلاقيون. وهكذا فأغلب نصوص العهد الجديد تدعوا إلى الرذيلة المقابلة للفضيلة بإفراط.

لذلك كان طبيعيا أن نجد أول من لم يلتزم بهذه الأخلاق هي الكنيسة نفسها، التي عُرف عنها الانتقام من كل من خالفها وعدم العفو عنه، حتى لو كان مسيحيا (إيليربي). وسبب عدم القدرة على تنزيل تلك الأخلاق؛ هو أنها خالفت الفطرة الإنسانية، فقدت خصائصها، وأضحت عبئا يستحيل أن تحيى به الإنسانية.

ولم يبق للنصارى إلا ذلك النداء العاطفي الذي يسمونه "المحبة"، والذي جعلوه محور ديانتهم، وهذا ما تشير إليه (دائرة المعرف الكتابية) بقولها: "السيد المسيح يحوِّل الأخلاقيات من مجرد كلمات روتينية إلى حياة. كما أن الصلاح -لدى بولس- ليس صورة خارجية بل طاقة تلقائية تنبع من النفس. وليست الفضائل -في التعليمين- سوى تعبيرات مختلفة عن مبدأ حيوي واحد هو المحبة هي تكميل الناموس".

لكن حتى قيمة المحبة هذه فإن (إنجيل لوقا: 14/ 25) يهدمها ويدعوا أتباعه إلى ضدها وبُغض كل شيء حتى أنفسهم، بقوله: "إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لي تلميذا". لذلك خلُص (بايه، صفحة 113) بعد دراسته المستفيضة، إلى أنه "لا توجد أخلاق إنجيلية".

فبعد أن جاء عيسى عليه السلام ليُكمل لا لينقض (إنجيل متى: 5/ 17)، نقض من جاؤوا بعده كل شيء، وحرفوا القيم الأخلاقية بعدما أفقدوها خصائصها بإفراطهم. فضاعت الأحكام العملية أيضا، بعدما ضاعت القيم الأخلاقية بسبب انحراف مرجعيتي العهدين القديم والجديد.

وبهذا الانحراف الثاني، نال البقية ممن حرف الكتاب المقدس "جيل شرير وفاسق" (إنجيل متى: 12/ 39).

الأخلاق من منظور الفكر الإسلامي:

عَنِيَ كل إتجاه في تحديد الغاية الأخلاقية ببيان السلوك المناسب لتحقيقها، والمجال الذي يدور فيه هذا السلوك، فالإتجاه المادي في الأخلاق يهتم بالسلوك الذي يحقق منافع مادية ينبغي استخدامها بالطريقة التي تحقق اللذة أو السعادة حسب وجهة نظره في فهمها. والإتجاه الروحي يهتم بالسلوك الذي يحقق مكاسب معنوية، ويطهر النفس من النوازع الشريرة. والإتجاه العقلي يهتم بالسلوك الذي يحقق مكاسب عقلية من كشف الحقائق وتنظيم السلوك والحياة وفقا لهذه الحقائق... فالشيء الذي يوجه السلوك في الإتجاه الأول هو المنافع، وفي الثاني هو الدوافع الروحية، وفي الثالث هو متطلبات الطبيعة المدركة في الإنسان أو القوة العاقلة (يالجن، 2003).

أما مجال الأخلاق في الإسلام، فهو مجالات الحياة كلها؛ لأن الأخلاق إذا كانت محركا ودافعا نفسيا لفعل الخير في الحياة، فإن الإيمان بالله وعبادته وحده دافعه الفضيلة، وحفظ النفس ورعايتها دافعه الفضيلة، وكذلك الإحسان للغير ولكل المخلوقات نابع من قيم أخلاقية. لأن كل هذه الأعمال بر (أي خير) كما قال الله I: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [سورة البقرة: 177]. والبر ثمرة الفضيلة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: {البر حسن الخلق} (مسلم) أي أن مصدره حسن الخلق. وهذا ما يفسر لنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: {إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ} (البيهقي، 2003).

والحديث الأخير يثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت لإنشاء تلك القيم من جديد، لأن كل الأنفس فُطرت عليها، {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [سورة الشمس: 7،8]. فالقيم فطرة مركوزة في النفس البشرية السليمة، لذلك اعتُبر من يخالفها ظالم لنفسه خائن لها، قال الله I: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء: 107].

ثم إن قيم الأخلاق في الإسلام ليست خاصة بالمسلمين فقط، وإنما هي كونية مشتركة بين الإنسانية عموما. إذ ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر بمعاملة الناس عموما وفق الأخلاق الحسنة في قوله: {اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ} (أحمد)، بل إن المسلم لا يكمل إسلامه إلا بكف أذاه عن كل الناس، والمؤمن لا يكمل إيمانه إلا بالسعي في منافع عموم الناس: {الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ} (أحمد).

خاصية كونية القيم هذه؛ هي التي طبعت معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لمحاربيه الذين عُرف بينهم أول حياته بالصادق الأمين. فعن حذيفة بن اليمان τ قال: "ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرناه الخبر، فقال: {انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ}" (مسلم). ففي عز الحرب، يلتزم الرسول صلى الله عليه وسلم بقيمة الوفاء بالعهد لمن يحاربه. وقد مرت به صلى الله عليه وسلم جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: {أَلَيْسَتْ نَفْسًا} (البخاري).

وإذا كان مفهوم القيم يتغير من مجتمع لآخر بحسب تغير المرجعيات، فإنه في الإسلام يتميز بالثبات لفظا ومعنا، وذلك راجع لكون هذه القيم ربانية المصدر؛ "فهي أخلاق تعتمد على كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ربانية الهدف والغاية. وعلى هذا فهي بعيدة كل البعد عن الرأي البشري، والنظام الوضعي، والفكر الفلسفي" الذي يعتريه النقص (موسوعة الأخلاق الإسلامية). ولما كانت سمة القيم الإسلامية؛ الربانية، لزمها أن تكون وسطية وشاملة وخالدة. فخالقُ النفس الإنسانية هو الذي يعلم ما يصلحها، ف{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: 32].

ومن شمولية تلك القيم أنها كرمت الإنسان عموما {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: 70]. وأن أثارها تستمر على صاحبها حتى بعد موته، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة: {تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ} (الترمذي). لذلك كانت "من سعادة ابن آدم حسن الخلق، ومن شقوته سوء الخلق" (البيهقي). وربط القيم الأخلاقية في الإسلام بأسمى رغبة للإنسان، –دخول الجنة والنجاة من النار- يجعل مبدأ الإلزام لديها أقوى منه في التشريعات السابقة.

غير أن الذي يهمنا في هذا البحث؛ هل لهذه القيم آثار دنيوية على الإنسانية كلها أم لا؟ للجواب على هذا السؤال، نحتاج لذكر الأدلة الواردة لكل القيم. وهذا أمر متعذر في مثل هذه البحث، لذلك نقتصر على أركانها فقط.

ذلك أن "حسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها" (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، 1996)، وهي:

1. الصبر: يحمل [الإنسان] على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.
2. العفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء؛ وهو رأس كل خير. وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.
3. الشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى؛ الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش.
4. العدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء؛ الذي هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة؛ الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم؛ الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس".

فهذه الأركان الأربعة هي منشأ كل فضيلة، وهي كلها مشتركة بين بني الإنسان وليست خاصة بالمسلمين فيما بينهم فقط. ولنذكر بعض الأدلة لكل ركن منها:

1. ففي الصبر يأمر الله I رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى الكفار في آيات عدة منها قوله: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} [سورة المعارج: 5]. أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعادا لوقوعه (تفسير القرآن العظيم). وقد أكد ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: {الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ} (الترمذي).

2. وفي العفة: نجد أن الله I يمدح الرجل الأمين الذي يتعفف عن أكل مال الغير وإن لم يكن مسلما: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [سورة آل عمران: 75]. كما رفع شأن المرأة العفيفة ولو كانت غير مسلمة، حيث سماها محصنة [سورة المائدة: 5].

3. أما في فضيلة الشجاعة: فإن الإسلام يدعو إلى حماية النفس الإنسانية عموما، باعتبار أن الشجاعة هي الإقدام والمسارعة لكل ما ينفع الإنسان كإنسان. كما في قول الله I: {وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: 32]. والمعنى: "من ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفا من الله؛ فهو كمن أحيا الناس جميعا" (القرطبي). وعدد قصص من خاطر بحياته من المسلمين لإنقاذ غير المسلمين لا تُحصى عددا، قديما وحديثا. من ذلك ما فعله شاب مسلم لإنقاذ رهائن بمتجر يهودي بباريس (الجزيرة).

4. وأما عن فضيلة العدل التي هي بذرة الأمن والسلم الاجتماعي، فإن الله I قد شدد عليها بقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة المائدة: 8]. أي: "لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا" (تفسير القرآن العظيم).

وفوق كل ذلك ف"{إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} (مسلم)، باعتباره أعلى قيمة أخلاقية يمكن البلوغ إليها. فأمر به حتى في معاملة الحيوانات.

إلا أنه قد يعترض البعض عن غياب تلك القيم في المجتمعات الإسلامية اليوم حتى فيما بين المسلمين أنفسهم، فأقول إن هذا سببه تغييب مصادرها عن الحياة عامة، أو سوء فهمها الذي أدى إلى الخلل في تنزيلها. مما أدى بالمسلمين إلى الحيدة عن الفضيلة الوسط، والوقوع في الرذيلتين؛ إما بتفريط كما فعل اليهود، أو بإفراط كما حصل للنصارى. أما أخلاق القرآن فهي عين الكمال، فهي التي "حفظت تراث الأسلاف ودعمته، وإنها وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلافهم، بل ينبغي أن نضيف أن الأخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس، وجملته، حين ضمت إليه فصولًا كاملة الجدة، رائعة التقدم، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقي" (دراز، 1998، صفحة 9).

الخاتمة:

وخلاصة القول فإن السعادة لم تغب عن الإنسانية إلا لما غابت القيم الأخلاقية، كما أشار إلى ذلك (طاليس، صفحة 219). وغيابها كان بسبب انحراف مفهومها وفقدان خصائصها، لانحراف مرجعيتها وتحريف مصادرها كما حصل لليهود والنصارى، أو لوجود خلل على مستوى تنزيلها رغم كمالها وصحة مصدرها كحال المسلمين.

فالأخلاق اليهودية تمركزت حول الأنا اليهودية حتى أعلتها وغيبت الإنسانية، والأخلاق المسيحية أذابت الأنا حتى غيبها في الجماعة. وغالب المسلمون غيبوا أخلاق القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم.

إن الوحدة المعيارية التي تقاس بها الأخلاق الوسطية؛ هي شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه القرآن دون إفراط ولا تفريط. لذلك ليس من حل للمسلمين إلا الرجوع إلى أخلاقه صلى الله عليه وسلم، والسعي لإخراج الإنسانية من جور الأديان إلى عدل الإسلام، كما شهد بذلك (ديورانت، 1988، صفحة 13/ 133) بقوله: "كان المسيحيون في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها. وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون... اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين، وجميع الزرادشتيين، والوثنيين إلا عدداً قليلاً جداً منهم، وكثيرون من اليهود في آسية، ومصر وشمالي أفريقية... في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكاً أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين، وأندونيسيا، والهند، إلى فارس، والشام، وجزيرة العرب، ومصر وإلى مراكش، والأندلس؛ وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام نحو ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية".

المصادر والمراجع:

ابن قيم الجوزية. (1996). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (المجلد الثالثة). بيروت: دار الكتاب العربي.
ابن كثير. تفسير القرآن العظيم (المجلد الثانية). دار طيبة للنشر والتوزيع.
ابن مسكويه. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (المجلد الأولى). مكتبة الثقافة الدينية.
أحمد. مسند أحمد (المجلد الأولى). مؤسسة الرسالة.
أريسطو طاليس. علم الأخلاق إلى نيقوماخوس. (أحمد لطفي السيد، المترجمون) القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
أكاديمية نماء. (بلا تاريخ).
https://www.namaeacademy.com/une-reunion-scientifique-sur-le-concept-de-valeurs-dans-les-sciences-islamiques-et-humainesvideo.
البخاري. الأدب المفرد (المجلد الثالثة). بيروت: دار البشائر الإسلامية.
البخاري. صحيح البخاري (المجلد الأولى). دار طوق النجاة.
ألبير بايه. أخلاق الإنجيل. (عادل العوا، المترجمون) دار كنعان ودار الحصاد.
البيهقي. (2003). السنن الكبرى (المجلد الثالثة). (محمد عبد القادر عطا، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
البيهقي. شعب الإيمان (المجلد الأولى). مكتبة الرشد .
الترمذي. سنن الترمذي (المجلد الثانية). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
الجرجاني. (1983). التعريفات (المجلد الأولى). بيروت: دار الكتب العلمية.
القرطبي. الجامع لأحكام القرآن (المجلد الثانية). دار الكتب المصرية.
إمانويل كانت. (2002). تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق (المجلد الأولى). (عبد الغفار مكاوي، المترجمون) كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل.
باروخ سبينوزا. (2009). علم الأخلاق (المجلد الأولى). (جلال الدين سعيد، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
روهلنج. (2008). الكنز المرصود فى قواعد التلمود. (يوسف حنا نصر الله، المترجمون) كنوز.
مجلس التحرير. دائرة المعرف الكتابية. (وليم وهبه بباوي، المحرر) دار الثقافة.
مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف. موسوعة الأخلاق الإسلامية. موقع الدرر السنية.
محمد عبد الله دراز. (1998). دستور الأخلاق في القرآن (المجلد العاشرة). مؤسسة الرسالة.
مسلم. صحيح مسلم.
مقداد يالجن. (2003). علم الأخلاق الإسلامية (المجلد الأولى). الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر.
هنري برعسون. (1984). منبعا الأخلاقدين والدين (المجلد الثانية). (سامي الدروبي، المترجمون) دار القلم للملايين.
هيلين إيليربي. الجانب المظلم في التاريخ المسيحي. (سهيل زكار، المترجمون) دار قتيبة.
ويليام جيمس ديورانت. (1988). قصة الحضارة. (زكي نجيب محمُود وآخرون، المترجمون) بيروت: دار الجيل.
Alan Mittleman .A Short History of Jewish Ethics :2012 .WileyBlackwell.
Jean Jacques Rousseau .Émile ou de l’éducation .Garnier.
jewishencyclopedia .(بلا تاريخ) .jewishencyclopedia.com/articles/5888-ethics2021 ,02 27 . تاريخ الاسترداد